حول تراجم الأدب الجزائري إلى الروسية

بقلم عبد العزيز بوباكير

يرجع الفضل إلى الثورة الجزائرية في توجيه أنظار المترجمين الروس (السوفييت) إلى إبداع الكتاب والمؤلفين الجزائريين. وقد مهد هؤلاء المترجمون الطريق أمام ظهور وتبلور مدرسة استشراقية متميّزة في نقد ودراسة الأدب الجزائري والتأريخ له لاحقا. ففي عهد الثورة الجزائرية برزت في روسيا وفي الجمهوريات السوفييتية الأخرى حاجة ملّحة إلى تعريف الرأي العام بالجزائر وقضيتها وتاريخها. وبديهي أن يصبح الأدب بما ينطوي عليه من قدرة على الولوج إلى ذاتية القارئ والتأثير فيها هو المنفذ الطبيعي للاستجابة إلى هذه الحاجة وتلبيتها .

بعد مرور سنتين على اندلاع ثورة نوفمبر ترجمت إلى اللغة الروسية روايتا محمد ديب "الدار الكبير" و"الحريق". وظلت الترجمة منحصرة أساسا في إبداع محمد ديب طيلة فترة الحرب. فصدرت له بالروسية سنة 1958 مجموعته القصصية "في المقهى". ثم اكتملت ثلاثيّته "الجزائر" بنشر رواية "النول" عام 1959. وتزامن صدور قصته "صيف إفريقي" مع نيل الجزائر استقلالها.

وانكب النقاد والباحثون الجامعيون على دراسة مؤلفات محمد ديب من زوايا مختلفة مبرزين فيها سمة أساسية هي التناقض الذي يطبعها، مؤكدين في الوقت نفسه على "جدة وحداثة" أسلوب الكاتب مقارنة بأسلوبي مولود فرعون ومولود معمري. غير أن هذا الاهتمام الكبير بمحمد ديب فتر، بصورة ملحوظة

ومفاجئة، بعد استقلال الجزائر. ويعود سبب ذلك إلى إعلان محمد ديب في ذيل روايته "من ذا الذي يذكر البحر" بطلان المنهج الواقعي وعجزه، وإلى انتقاله إلى رؤية حداثية ترتكز على مساءلة الشرط الإنساني في عالم عدواني غامض وفي أبعاد متخيّلة بعيدة عن حقيقة الواقع. وليس غريبا أن تتوقف ترجمة أعمال محمد ديب في بلد طغى فيه فترة طويلة منهج الواقعية الاشتراكية والأدب الإيديولوجي في حقلي النقد والكتابة على حد سواء.

في عهد الثورة، أيضا، ترجمت إلى اللغة الروسية رواية "إغفاءة العادل" لمولود معمري. واعتبرها النقاد هناك "قصة تمتاز بسخرية لاذعة عن تربية أحاسيس مثقف جزائري شاب خابت آماله في الحضارة الغربية الأوروبية ". ثم ترجمت للكاتب نفسه "الربوة المنسية" (1966) التي نالت بشاعريتها الحزينة وأجوائها الأسطورية المتميزة إعجاب النقاد الروس عكس ما حدث في الغرب، حيث لم تلق هذه الرواية حظها من الرواج والترحيب. وفي عام 1967 نشرت بموسكو رائعة مولود معمري "الأفيون والعصا"، وثمنتها أعلى تثمين العالمة إيرينا نيكيفوروفا بقولها إنها "ظاهرة بالغة الأثر في النثر الواقعي الجزائري في عهد الاستقلال ".

أما مولود فرعون فلم يترجم له أي عمل من أعماله في الاتحاد السوفييتي وهو على قيد الحياة. ولم يلتفت إليه المترجمون إلا بعد اغتياله المأساوي.

وهكذا ترجمت له تباعا "نجل الفقير "(1963)، و"الأرض والدم"(1965)، و"الدروب الصاعدة"(1965) و"أيام القبائل" (1970) و"فورولو منراد"و"يوميات"والتعاون في المجتمع القبائلي" (1981).

وفي سنة 1963 صدرت رواية مالك حداد "البصمة الأخيرة"، أعقبتها ترجمات متفرقة لأشعار ومقالات الكاتب نفسه، الذي اعتبر النقاد الروس إبداعه "طفرة نوعية في الرواية الواقعية الجزائرية"، إذ أن مؤلفات مالك حداد تنقل واقعا جديدا تماما من خلال تصوير مصائر المثقفين في عهد الهزات الاجتماعية العنيفة. وفي الفترة نفسها تقريبا ترجمت رواية "جبل الوزَال" لمراد بوربون، و"أطفال العالم الجديد" لآسيا جبار، و"قرية البروق" لعلي بومهذي .

ولم تنقل رواية " نجمة" لكاتب ياسين إلى اللغة الروسية إلا بعد مرور خمس عشرة سنة على صدورها بالفرنسية. وفي عام 1976 ترجمت إلى الروسية مسرحية "مسحوق الذكاء" أو "غبرة الفهامة". وقد حلّل النقاد مؤلفات كاتب ياسين من منظور تجسيدها لموضوع الفرد في مواجهة عالم مهتز من أساسه، واعتبروا أعماله متميّزة بالرومنسية والتمرد في شكل تعبير ذاتي – غنائي.

انحصرت ترجمة الأدب الجزائري إلى اللغة الروسية في العشرين سنة الأولى التي أعقبت الاستقلال في فرع هذا الأدب المعبر بالفرنسية. ومرد ذلك، في المقام الأول، إلى المكانة المرموقة التي احتلها هذا الفرع ضمن الآداب الأفرو – أسيوية، وإلى يسر الترجمة من الفرنسية، وتأخر ظهور الأعمال الأدبية البارزة بالعربية (خاصة الروائية) إلى السبعينيات. ويعتبر الأديب

الطاهر وطار أول كاتب جزائري بالعربية تنقل أعماله إلى الروسية. ففي سنة 1966 نشرت قصته "نوة" ضمن مجموعة قصصية بعنوان "الليلة الرهيبة ". كما كانت"الزلزال" أول عمل روائي جزائري بالعربية يترجم إلى الروسية سنة 1979 بعنوان "واهتزت الأرض"، ونشرت في مجلة "الأدب الأجنبي" قبل صدورها سنة 1980 في مجلّد واحد مع رواية "اللاز". وقدّم للروايتين المستعرب البارز روبرت لاندا.

وأطلع القراء الروس على مؤلفات رشيد بوجدرة بعد ترجمة عمليه "طبوغرافية مثالية لاعتداء موصوف"(الاراثة) و"الفائز بالكأس". وفي 1987 صدرت في مجلد خاص عن دار النشر "قوس قزح" روايات عبد الحميد بن هدوقة الأساسية:"ريح الجنوب"، "بان الصبح" و"الجارية والدراويش" إضافة إلى قصص أخرى للمؤلف.

أما ترجمات الشعر الجزائري باللغتين العربية والفرنسية، فقد تمت على مراحل. ولم ينفرد شاعر جزائري واحد بديوان مستقل ماعدا أبو القاسم سعد الله الذي ترجم ديوانه "النصر للجزائر" عام 1961 بعد نشره في القاهرة سنة 1957. وقدّم لهذا الديوان الدكتور كرامينوف منوَها بقوة وحرارة التعبير الشعري عند سعد الله. إن الشعر الجزائري في نسخته الروسية ممثل بكل اتجاهاته ومدارسه ولغات تعبيره (العربية، الفرنسية، الأمازيغية) وصدرت قصائد عديدة منه في ديوان "الشعر الجزائري المعاصر"، وفي منتخبات شعرية: "من الشعر الأفرو- أسيوي"(1981) و"شعراء شمال إفريقيا" (1986). كما نشرت مجلة "الأدب

الأجنبي" و"الجريدة الأدبية" عدة نماذج ممثلة لمختلف الأصوات الشعرية. والشعراء الذين أطلع القراء على قصائدهم مترجمة هم: مفدي زكريا، محمد ديب، بشير حاج علي، مالك حداد، كاتب ياسين، أبوالقاسم سعد الله، الأخضر السائحي، آسيا جبار، رشيد بوجدرة، حمري بحري، أحمد حمدي، أزراج عمر، محمد زتيلي، أحمد أزقاغ، جان سيناك، جمال عمراني، طاوس عمروش. والملاحظ أن المترجمين النقاد والروس يدرجون هنري كرييا وجان سيناك ضمن شعراء الجزائر طالما أن موضوع شعرهما هو الجزائر وأن خطاب شعرهما مفعم بنبرات الحرية ومناهضة الاستعمار.

ويرى النقاد الروس أن الشعر الجزائري باللغتين يعكس قضايا العصر في لوحات تنصب فيها في كلَ منسجم أصباغ كئيبة ومرة من الألم وألوان ساطعة من الأمل.

لقد ساهمت هذه الترجمات في التعريف بالأدب الجزائري والترويج له في رقعة جغرافية واسعة، ذلك أن الترجمة إلى الروسية كانت جسرا لنشر هذا الأدب في لغات جمهوريات الاتحاد السوفييتي قبل تفككه. كما كانت بمثابة جسر ثقافي لتحاور ثقافتين ورؤيتين مختلفين، واستمرار لاهتمام الروس بترجمة المؤلفات العربية. هذا الاهتمام الذي بدأ في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وتعمق بفضل تبلور مدرسة الاستشراق الروسية في بداية القرن التاسع عشر.

ولا شك أنه يمكن الحديث عن مكتبة أدبية جزائرية باللغة الروسية.إذ بلغ ما طبع من أعمال المؤلفين الجزائريين في روسيا نحو الأربعين (40) عملا،

وتجاوزت أعداد سحبها مئات الآلاف . وهكذا بلغ على سبيل المثال، عدد النسخ المسحوبة من "أيام القبائل" لمولود فرعون 30 ألف نسخة، و"اللاز" و"الزلزال" للطاهر وطار 50 ألف نسخة. وأشرفت على هذا العمل الجبار في ترجمة الأدب الجزائري إلى اللغة الروسية كوكبة من المستشرقين والمستعربين والمترجمين نذكر منهم:سفيطافيدوفوي، وبراجوغينا، وفوليفيش(من الفرنسية) وشاغل، ويرماكوفا وفلاسوفا وميكولسكي (من العربية). لكن حركة النقل والترجمة انقطعت، للأسف الشديد، في السنوات الأخيرة بسبب انقطاع الصلات الثقافية بين البلدين نتيجة للأحداث المؤلمة والهزات العنيفة التي تعرض لها الاتحاد السوفييتي والجزائر.

*حول التلقي الروسي للأدب الجزائري أنظر: عبد العزيز بوباكير، الأدب الجزائري في مرآة استشراقية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2002

المؤلفات الأدبية الجزائرية المترجمة إلى اللغة الروسية

* ديب محمد: الدار الكبير (1956)، الحريق (1956)، في المقهى (1958)، النول (1959)، صيف إفريقي (1962).

* فرعون مولود: نجل الفقير (1963) الأرض والدم (1965)، الدروب الصاعدة (1965)، أيام القبائل (1970)، فورولو منراد(1981)، يوميات (1981).

*معمري مولود: إغفاءة العادل (1960)، الربوة المنسية (1966)، الأفيون والعصا(1967).

*حداد مالك: البصمة الأخيرة (1963).

* كاتب ياسين : نجمة (1971)، مسحوق الذكاء(1976)

* بوربون مراد: جبل الوزَال (؟)

* جبار آسيا: أطفال العالم الجديد (1965)

* بومهذي علي: قرية البروق (؟)

* عكاش أحمد: الهروب (1975)

*وطار الطاهر: نوة (1966)، الزلزال (1979)، اللاز (1980)

* بوجدرة رشيد: طوبوغرافية مثالية لاعتداء موصوف (1985) الفائز بالكأس (1987)

*بن هدوقة عبد الحميد: ريح الجنوب، بان الصبح، الجارية والدراويش وقصص أخرى (1987)

* عواري مالك: جبل إبن آوى (1987)

* محامصاجي قدور: صمت الرماد (1987)

* سعد الله أبو القاسم: النصر للجزائر (شعر) - (1961).